مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

الحنين في الشعر الأموي

الدكتور محمد دوابشة *

(تاريخ الإيداع 31 / 8 / 2008. قبل للنشر في 26 / 7 / 2009)

□ الملخّص □

يرمي هذا البحث إلى استنطاق الأشعار الأموية الخاصة بموضوع الحنين من حيث الأسباب والدوافع، الداخلية والخارجية ، وانعكاسات ذلك على نفسية الشاعر ، وقد وقف الباحث على جانبين في دراسة الموضوع، وهما :

المكاني ، وهو ما له علاقة بالمكان كالبادية والصحراء، ومحاولة استرجاع المكان ذهنيا في أوقات معينة، إذ كان للمكان نصيب وافر في الشعر الأموي ، وحظيت نجد بمساحة شعرية وافرة ، مقارنة مع بقية الأماكن. وجاءت هذه الأهمية للمكان ؛ لأنه يمثل بداية الحياة وتفتق العقل في مدارج الصبا ، فجاء شعر الحنين ؛ ليعبر عن شوق وحنين وهمٍّ دفين ،لدى بعض الناس ، مثل الفاتحين والصعاليك والفارّين وغيرهم .

والثاني ، العاطفي ، وهو مكمل للجانب الأول ، وهذا ما له علاقة بالأهل أو المرأة أو المحبوبة، وكل ما يثير عاطفة الشاعر وأحاسيسه ، فتصارعت في نفسه أصوات عدة ، لم يستطع إخفاءها ، مهما حاول ، فراح ينطقها شعرا عذبا ، علها تخفف مما هو فيه ، وأنَّى له ذلك . وقد اعتمد الباحث في بحثه على المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الأشعار و تحليلها ، كونه أقرب المناهج لدراسة الموضوع .

الكلمات المفتاحية: الحنين – الشعر الأموي – الوطن – المكان – الغربة – البادية – الصعاليك

* أستاذ مشارك –قسم اللغة العربية والإعلام– كلية العلوم والآداب– الجامعة العربية الأمريكية – فلسطين.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

Nostalgia in Umayyad Poetry

Dr Mohamed Dawabsheh*

(Received 31 / 8 / 2008. Accepted 26 / 7 / 2009)

□ ABSTRACT □

This research aims at questioning the Umayyad poems that deal with nostalgia, focusing on internal and external reasons and justifications and their reflections on the poet's psyche. This research approaches this issue from two sides. Firstly, place and its relation to desert and mental image; place is plays a great role in Umayyad poetry, especially Najd along with other places. The importance of place comes from the fact it represents the beginning of life. Secondly, emotion and its relation to family, woman, beloved, and every thing that provokes the poet's emotions and sentiments. To study and analyze these poems, the researcher relies on the descriptive analytical approach.

Keywords: Nostalgia, Umayyad Poetry, Homeland, Place, Estrangement, Bedouin, Paupers

***Associate Professor, Arabic Language and Media Department, Faculty of Arts and Humanities, Arab American University, Palestine.**

مقدمة:

إن موضوع الحنين ليس جديدا في الشعر الأموي ، لكن أسبابه ودوافعه مختلفة ، فالشعر الجاهلي، بشكل عام ،كان شعرا بدويا، ودليل ذلك طبقات ابن سلام ، إذ أقامها على شعراء البادية بدايةً، ثم تناول شعراء القرى ، بعد أن أصبح للمدن ــ وبخاصة مكة والمدينة والكوفة –شعراؤها،أما البصرة، فقد كانت على مشارف البادية،وقد أكسبها هذا الموقع أهمية لا تدانيها أهمية ، من الوجهة الثقافية ، طوال العصر الأموي. وكان الشعراء، وبخاصة جرير والفرزدق ، والجمهور العام القريب منهما ،الذي يحنّ إلى ماضي آبائه، ويرتاد المربد، ويعيش فيه أياما بدوية، ويبدو أن الإقبال على المربد، قد تزايد بتأثير من مناقضاتهم ،ومن رغب في مشاركتهما فيما حققا من شهرة.

وكان أغنياء القوم يتطلعون إلى إقامة البساتين والدور في البادية،وقد يفضلون الإقامة الدائمة أو شبه الدائمة فيها على القصور الباذخة، فالثروات المادية والترف الاجتماعي في القصور وسكنى المدن القديمة والجديدة، يؤكد الارتباط الواقعي بأنماط الحياة الجديدة، ومع هذا ظلت الروح بدوية،واتجه الحنين،بل الحلم المثالي إلى الحياة في البادية.

يرافق الحنين إلى المكان، الحنين إلى الأهل أو المرأة أو المحبوبة ، وبخاصة عند شعراء الفتوح والغزوات الذين يمكثون فترة طويلة، بعيدين عن نسائهم وأهليهم،ومعرضين للقتل أو الموت أو الاستشهاد ، لذا جاء البحث في جانبين ؛ الأول يركز على المكان والآخر على العاطفة .والحنين ينتج من الغربة ،وكذلك الحالة النفسية بعد الغربة، ولا نقصد هنا الحديث عن الغربة أو الاغتراب ، فالغربة بمعنى مغادرة الوطن طوعا أو كرها ، تكون في الغالب لأسباب سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو عاطفية، كقول امرئ القيس :

لَقد انكَرَتْنِي بَعْلَبَكٌ وأَهلُها و لابْنُ جُرَيْج فِي قُرَى حِمْصُ أنْكَرا (1)

وكذلك لا نقصد بالاغتراب اغتراب الإنسان عن عمله وزملائه، وهو الذي يراه الوجوديون في البعد عن الوجود العميق " بحيث لا يكون الإنسان ذاته ، وإنما مجرد صفر على الشمال في الوجود الجمعي للجماهير ، أو مجرد شيء في نظام صناعي" (2) ؛ ذلك، لأنه يدور حول الاغتراب عن المجتمع مع الوجود داخله ، وإن كان في موضوعنا بعض الملامح منهما ، ولكنها ليست الملامح الرئيسة، فالذي نقصده هو تعلق الإنسان بجوارحه بهذا المكان أو ذاك وتفضيله على غيره،والآثار النفسية المترتبة على بعده عنه،وكذلك الحال بالنسبة للحنين العاطفي.

أهمية البحث وأهدافه:

يهدف هذا البحث إلى معالجة موضوع إنساني محدد ، وهو موضوع الحنين ، فالحنين ظاهرة عامة في نفوس البشر ، وعند العرب أكثر وضوحا ، وفي شعرهم أكثر تجليا ، وهو ما يتوافق مع طبيعتهم الحساسة وبيئتهم الصحراوية ، كما يهدف إلى التركيز على الظاهرة في عصر محدد ، وهو العصر الأموي ،

فقد كانت الدراسات السابقة تتناول الموضوع في الشعر العربي بشكل عام ، كما فعل يحيى الجبوري ومن قبله محمد حوّر .

ومن أهداف البحث كذلك إبراز موضوع الحنين ومعالجته كظاهرة لها حضورها ، بالاعتماد على أشعار الحنين واستنطاقها ، ويركز البحث على إظهار الأثر السلوكي والنفسي والفكري عند الشاعر الذي يفتقد وطنه أو أهله أو محبوبته ، لسبب أو لآخر ، بالاستفادة من بعض مناهج علم النفس الحديث .

منهجية البحث:

تتعدد مناهج دراسة الظواهر الأدبية وتخضع لاجتهادات وآراء مختلفة ، ما بين منهج وآخر ، يحقق كل منها ميزة أو ميزات ، ويقع أحيانا في قصور أو يعجز عن تحقيق غايات . وقد ناقش الباحث في بحثه أشعار الحنين مناقشة علمية موضوعية من خلال استنطاق الأشعار وتحليلها ونقدها ، ثم ربطها بالحالة النفسية التي مر بها شعراء ذلك العصر وربطها بالمكان الذهني والواقعي والمتخيّل وانعكاساته على المرأة أو الأهل أو الأحبة ، واعتمد الباحث في بحثه المنهج الوصفي التحليلي ، كونه أقرب المناهج لدراسة مثل هذا الموضوع ، ومستفيدا في الوقت ذاته من بعض المناهج الأخرى .

- **الحنين إلى الوطن (المكان) .**

نقصد بالوطن هنا ما وطّن الشخص نفسه عليه ،وليس فقط البقعة الجغرافية وما فيها من ماء وهواء وتراب(3) ، وجاء القرآن موافقا لهذه الفكرة ، قال تعالى :" **وَلَو أنّا كَتَبنَا عَليهِم أَن اقتلُو أنفُسَكُم أَو اخرُجُوا من دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إلا قَليلٌ** " (4) ، فالفطرة الإنسانية فطرت على حب المكان الذي نشأت فيه، لما له من انعكاس وعلاقة تأثيرية بينهما ، لذلك فإن الإنسان الذي يرتحل لسبب أو لآخر عن المكان، يبقى دائم الحنين إليه ، والحنين في اللغة من الفعل الثلاثي " حَ-نَ-نَ" جاء في اللسان، الحَنّان : من أسماء الله ، وحنَّ يحنَّ حنـــًّا وحَناناً ، وهو حنّان (5). قال تعالى " **يَا يَحيَي خُذ الكِتَابَ بِقُوَةٍ وَاتَينَاهُ الحُكمَ صَبِيا ، وَحَنَاناً مِن لَدُنّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّا** " (6) ، والحنين : الشديد البكاء والطرب ، والحنين: الشوق وتوقان النفس ،والمعنيان متقاربان ، وحنت الإبل : نزعت إلى أوطانها وأولادها (7) .

وقد حنّ النبي الكريم إلى مكة ، فقال عليه الصلاة والسلام في وداعه لها : " والله إنك لأحب أرض الله إليّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك(8) ، ومثله حديث أم المؤمنين عائشة : لولا الهجرة لسكنت مكة ، فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة ، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة(9) ، ولما قدم أصيل الغفاري إلى المدينة سأله النبي عن مكة ، فقال أصيل : عهدتها وقد أخصبت جنباتها ، وابيضت بطحاؤحا ، وأغذق اذخرها ، وأسلت ثمامها ، وأمشّ سلمها ، فقال النبي : حسبك يا أصيل لا تحزنا (10)، وقال بزر جمهر : من إمارات العاقل، بره بإخوانه وحنينه إلى أوطانه ومداراته لأهل زمانه (11)، " وما بكاء الأطلال والديار إلا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نما معهم على مر الزمن واختلاف المنازل والأمكنة " (12) ،وهذا ما فسره نوري القيسي في قوله " والحنين إلى الطلل يمثل الحنين إلى الوطن ؛ لأن الطلل وما يحيط به وما يتناثر حوله من دمن يمثل مجموعة الذكريات التي عاشت في ذهنه،فحمل لها أجمل الأوقات وأسعد الأيام" (13) ،"ويشترك معظم شعراء الإسلام والعصر الأموي في هذه الظاهرة –ظاهرة الحنين–ولعلهم "يريدون العودة إلى الأصول التي عاشها آباؤهم في الجزيرة العربية، قبل أن ينتقلوا إلى المدن، وكأنهم بهذا الحنين إلى الموطن الأول يخلقون نوعاً من الوصال مع جذورهم"(14)

إن الحنين إلى البادية أو الصحراء أو المكان الأم ، كان سمة بارزة في الشعر الأموي، وهناك دلائل شعرية كثيرة تدل على ارتباط الإنسان في العصر الأموي بعمق المكان وقيمته الروحية ، سواء أكان عاشقا أم صعلوكا أم سجينا أم فاتحاً أم بعيدا عن مكانه الأم ،لسبب أو لآخر ، ويبرز حنين شعراء العصر الأموي إلى الوطن بشكل كبير

لأسباب عدة،فهذا يعلى الأحول اليشكري الأزدي، تفيض نفسه بالحنين إلى بلاده، ومن وما فيها من شجر وجماد وحيوان، يقول:

أرقتُ لبرقٍ دُونهُ شَذَوان ... يَمانٍ وَأهوَى البَرقَ كُلّ يَمانِ

فَبتّ لَدَى البيتِ الحرامِ أشيمُه ... ومِطواي مِن شَوقٍ لَهُ أَرقانِ

إذا قلتُ: شِيماهُ يقولان والهوَى ... يُصادفُ مِنا بَعضَ مَا تَرَيانِ

جَرَى مِنهُ أَطرَافُ الشّرَى فَمُشّيعٌ ... فَأَبيانُ فالحيانُ من دَمرانِ

هُنالكَ لَو طَوفتُمَا لَوَجَدتُـــمَا ... صَديقاً مِن إخوَانٍ بِها وَغَوَانِ

وعَزفُ الحمامِ الوُرق في ظِلّ أيكةٍ ... وَبِالحَيّ ذِي الرّودَينِ عزفُ قيانِ

فليتَ القِلاصَ الأدم قَد وَخَدَت بِنَا ... بِوَادٍ يمانٍ ذِي رُبَا وَمَجَانِي

بِوَادٍ يمانٍ يَنبتُ السّدرُ صدرُه ... وَأَسفلــــــُه بِالمرخِ والشّبَهانِ

وَلَيتَ لَنَا بِالجوزِ واللوزِ غِيلَة ... جَنَاهَا لَــــنا مِن بَطنِ حِلية جَانِي

وَلَيتَ لَنَا بِالديكِ مَكّاءَ رَوضَةٍ ... عَلَى فَنَنٍ مِن بَطنِ حِليةَ دَانِي(15)

نلاحظ أن استخدام الفعل الماضي قد أسهم في البناء الفني وتقوية روابطه للقصيدة بكاملها، وللأبيات بشكل خاص ، فانتقال الشاعر في هذا المقطع من " جرى منه ... إلى هنالك لو ...." يعد اختزالاً لمكان ذهني محفور في الذاكرة وتعليقا على الأحداث جميعها ، وسمح للمقطع الشعري الجديد بالتدفق العاطفي؛ لأن عملية التذكر ما زالت مستمرة، وتزدحم هذه الأبيات بأكثر من دال حسي ومعنوي، واستخدام" ليت لنا" وتكرارها تدل على غياب الأنا مع الحاضر، مما يضيف على القصيدة طابعا دراميا ، أمام خفوت صوت الأنا؛ وبروز صوت الصراع الداخلي في هذا المقطع ، وكلمة "كلما"في قول القطامي تعطي المدلول ذاته ، يقول :

أَحِنُّ إلى تلكَ المنازلِ كلّما ... غَدا طائرٌ في أيكهِ يترنَّمُ

بكيتُ من البين المشت وإنني ... صَبورٌ على طَعْنِ القَنا لو عَلمتُم(16)

كان المهاجرون إلى الأوطان الجديدة قد استقروا وطاب لكثير منهم المقام ،وظل بعصهم مشدوداً إلى مقامه الأول بالجزيرة.....وكانت النقلة الحضارية قد مست نفوس الناس وأساليب معيشتهم وطرائق سلوكهم، فتغيرت كثير من القيم الحضارية والاجتماعية وإن ظل كثيرون تتنازعهم قيم قديمة عميقة الجذور في النفس العربية (17) ، فحين كان الشعراء يغادرون أوطانهم، كانوا يغادرونها على كره منهم ، فيحسون بالانكسار و الحزن ؛ لأنهم يغادرون أشياء كثيرة، فقد تكون هذه الأشياء علاقة حب ، أو أصواتا يأنس بها في ضوء القمر ، أو ارتباطا بنخلة نمت على عينيه ، أو بنجم يتألق في السماء،فيتألق في نفسه، فكان يغادر هذه الأشياء مهموما محزونا ، تحت الضغوط لا يملك إلا الالتفات إليها بشيء من الجلد ، ثم بشيء من الحزن .

ويبرز الحنين إلى المكان في شعر الصعاليك الأمويين بشكل واضح، إذ نشعر في شعرهم حنينا صادقا إلى الاستقرار بعد حياة التشرد والمطاردة واللصوصية، وما يصاحبها من تشرد وابتعاد عن الأوطان والأهل والأحبة، فمالك بن الريب أقسم أن يترك حياة التلصص ،وأن ينفصل عن أصدقائه الصعاليك ، إذ أنفق شطرا من عمره يقطع الطريق معهم ،مبتعدا عن وطنه ومغتربا عن أهله وعزم على ترك الصعلكة، بعدما أحس بملل تلك الحياة، وبشوق إلى زوجته وإلى حياة الهدوء بجانبها ؛ لأن طيفها يسري إليه ،مذكرا بحق الزوجية عليه ،يقول مالك بن الريب في حوار داخلي مع نفسه:

عَليّ دِماءُ البُدْنِ إنْ لَم تُفارِقِي أبا حَردب يوماً وأصحابَ حَرْدَبِ
سَرَتْ في دُجا ليلٍ فَأصبحَ دُونَها مَفاوزُ جمران الشريف وغرَّبِ
تطالعُ مِن وَادي الكلابِ كأنها وقد أنجدتْ منهُ فريدةُ دببِ (18)

يعتمد الشاعر على المكان، مع التركيز على عناصر المشهد الطبيعي، من خلال تجديد عملية التذكر، وكأن المشهد كله شريط سينمائي، يعتمد على تشظي الذاكرة، لكنّ كثرة التفاصيل في ذهن الشاعر أدت إلى ضعف الرؤيا الشعرية، فهو مع أبي حردب ،يعايش المفاوز، وليله مظلم، وهو في الوقت ذاته يبحث عن مخرج مما فيه . ونراه في موضع آخر يأسف ويتحسر لبعده عن بلاده،ومفارقته صاحبته ، وهو يحزن ويتألم ، عندما يتذكر أهله ، وأنهم يعيشون حياة الهدوء والاستقرار ،بينما هو مشرد بعيد ،لا يشاركهم شيئا ، يقول مالك بن الريب:

رأيتُ وَقد أَ تَى بُحْرانُ دُونِي لليلي بالغُمَيِّم ضَوءُ نارِ

.....

وتَصطادُ القلوبَ عَلَى مَطاهَا بِلا جَعدِ القُرونِ ولا قِصارِ
وتبسم عن نقيّ اللونِ عَذْبٍ كما شِيفَ الأقَاحِي بالقُطارِ
أتجزعُ أَنْ عرفتَ ببطن قَوٍّ وصحراءِ الأديّم رسمَ دارِ؟
وأن حلَّ الخليطُ ولستَ فيهم مرابع بين ذَحلَ إلى سرارِ
إذا حَلّوا بَعِائجَةٍ خَلاءٍ تُقطّف نَوْر حنْوَتها العذاري(19)

ولوم الذات يعني استعادة مسلسل الأخطاء التي فعلها الشاعر والاعتراف بها،عسى أن يكون في ذلك محو للآثار النفسية القاسية التي تلاحق الإنسان كل لحظة،لأجل هذا استمر الشاعر في كشف أسراره، حين كان غافلاً، لذا احتاج أن يعيد إلى الأذهان الجدل بين العاشق والمعشوقة،ولعل طيف المحبوبة هنا ، يمثل صوت العقل الذي يوجه الانتباه إلى ما يجب أو ما يحب، وقد تعامل الشاعر مع معشوقته في زمنين مختلفين: زمن سلبي، زمن غفلته، وزمن إيجابي، زمن صحوته، لهذا رأيناه بعد الصحوة يعترف بخطئه، ويلوم نفسه ،ويبدو الحنين في أبيات الأحيمر السعدي الذي قدم العراق وقطع الطريق ، فطلبه سليمان بن علي أمير البصرة وأهدر دمه، ففر إلى بلاد فارس،وهناك انتابه حنين إلى الوطن والأهل ،واسترجع أيامه الهادئة بينهم ، ومن بلاد فارس راح يدعو بالخير لأهله وأرضه ، يقول :

لَئِنْ طَالَ لَيلِي بالعَراقِ لَربمّا أَتَى لِيَ ليلٌ بالشآم قَصِيرُ
مَعِي فتيةٌ بيضُ الوجوهِ كأَنهُم عَلَى الرّحلِ فَوْقَ النّاعِجَاتِ بُدورُ
أيَا نَخَلاتِ الكَرْمِ لا زالَ رَائِحاً عَليكنَّ مَنْهَلٌ الغَمَامِ مَطيرُ
سَقَيْتُنّ مَا دَامت بكرمانِ نخلةٌ عَوَامِر تَجْرِي بَيْنَهُنّ بُحورُ
وَمَا زَالَتِ الأيامُ حَتّى رَأَيتنِي بِدورق مُلقىً بينهنّ أدورُ(20)

وهناك شواهد كثيرة تدل على الحنين ،وتصور لهفة صاحبها لحياة ملؤها الأمان والاطمئنان ،بعد حياة التشرد والتلصص ، وما كان يفعله الصعاليك خير شاهد على ذلك ، فأعمالهم محرمة يدينها الشرع ويستنكرها المجتمع، ولذلك تواروا عن العين ، فارّين من يد القانون، وفي الابتعاد يتأجج الحنين،فهذا الشخص أمام أحد أمرين، إما العودة إلى وطنه ،وإما الوقوع في قبضة الحكام والولاة، وإما البقاء في الاغتراب و الاكتواء بنيرانها والصبر

على ليالي الغربة والتلهف للعودة إلى المكان المتأمل ،فعبيد بن أيوب العنبري ،وهو متشرد في الفيافي والقفار ،لا يجد إلا الجمل ــ رفيق دربه ــ يسره شكواه ،ويعده أن يهبه حريته إن هو توجه لزيارة ديارمحبوبته، يقول:

أَيَا جَمَلِي إنْ أنتَ زُرْتَ بِلادَها   بِرحلِي وَأجلادِي فَأنتَ مُحررُ
وَهل جملٌ مجتابٌ مَا حَالَ دونها   مِن الأرضِ أو ريحٌ تروحُ وتبكرُ
وَكيفَ ترجّيها وقد حَالَ دُونَها   مِن الأرضِ مخشيّ التنائف مذعرُ
وَأنتَ طَريدٌ مستسرٌ بقفرةٍ   مِراراً وأحياناً تصب فتظهرُ
فَيا لَيتَ شِعرِي هَل يَعودنّ مربع   وقيظ بأكنافِ الظليفِ ومحضرُ(21)

إن استغلال جدلية الحضور والغياب في هذا المقطع،منح نهاية الأبيات الشعرية أعلى ما يمكن من حالة التكثيف الجمالي التى آلت إليها جماليات مقاطع القصيدة،إذ يبني الشاعر أبياته من جمل قصيرة مكثفة،نلمس فيها شاعرية العبارة وتركيز المفردة التي تكتسب وضعا خاصا في سياق الجملة الشعرية،فالشاعر موزع بين الحضور والغياب،ولكن بنية الحضور" الأنا " تهيمن على النص،فالشاعر كان مرتبطا بدياره وأوطانه ارتباطا وثيقا ،ليس له منه فكاك وأنه حن إلى الديار والأوطان حنينا صادقا ناتجا من عاطفة قوية وحب عظيم إليها (22).

إن هذا الحنين الذي تفيض به مشاعر الصعاليك،دفع بعضهم إلى هجر الصعلكة وتركها ،أملاً في حياة مستقرة هادئة ،يقضونها بين الأهل والأحباب ،بعيداً عن الخوف وشبح الحكام والولاة الذي يطاردهم في كل مكان، وهذ ما نجده في نفس مالك بن الريب الذي تتوق إلى العيش المستقر الآمن، بعد أن وقع ورفيقه أبو حردب في يد رجل من الأنصار ،واستطاعا النجاة،بعد أن قتل مالك الرجل الأنصاري وغلامه ،وهربا إلى البحرين ، ثم إلى خراسان، فهو يعاهد نفسه بأن يهجر اللصوصية ،ويفارق رفاق السوء، فهو يهجر الصعلكة واللصوصية ويختار الغزو بصحبة سعيد بن عثمان بن عفان في خراسان،ويموت فيها، ويرثي نفسه بمطولة من عيون الشعر العربي(23) .وإذا كانت الحياة الكريمة هدف كل إنسان ،فإن الغربة الروحية تمثل جزءاً آخر من مسيرة الصبر الطويل في سبيل تعزيز الوجود الإنساني ،وتأكيداً لقيمة كرامته، بعيداً عن كل ألوان الظلم والاضطهاد ،ولم يكن هذا الصبر محكوماً بإرادته ،بقدر ما كان محكوماً بطبيعة الظروف التي أحاطت بنشاطه،لذلك نرى بعض الشعراء الهاربين أو المخلوعين يشكون انعدام الطمأنينة في حياتهم ،فلا يذوقون طعم النوم ،ولا يعرفون للراحة سبيلاً،وهذا ما يعبر عنه الشاعر مالك بن الريب ،فالقلق والاضطراب يكتنفان المرء في الصحراء، يقول:

ما نِمْتُ إلا قَليلاً نمتهُ شئزاً   حَتّى وَجَدْتُ عَلَى جُثْمَانِي الثّقَلا(24)

كما يقدم عبيد بن أيوب العنبري الصورة المثلى التي تعكس حياة الغريب المتشرد،التي صبغت بألوان الصحاري ،ألوان الجدب والقحط،يقول:

رأتْ خَلِقَ الأدَراسِ أشعثَ شَاحِباً   عَلَى الجَدْبِ بَساماً كَريمَ الشَّمَائِلِ
تَعَوّدُ مِن آبائه فتكاتـــــــهم   وإطعامِهِم فِي كُلِّ غَبْرَاء شَامِلِ
إذا صَادَ صَيْداً لَفّهُ بِضِرَامــــــةٍ   وَشِيكاً وَلَم يَنْظُر لِنَصْبِ المَرَاجِلِ
وَنَهْسَاً كَنَهْس الصَّقْرِ ثُمَّ مِرَاسَهُ   بِكفيهِ رَأْس الشّيخَةَ المُتَمَايلِ(25)

وتوحي أشعارهم بأنهم يمتلكون القدرة والشجاعة والجرأة بالقدر الذي يمكنهم من مواجهة الأخطار،ومن هنا نجد العلاقة الحميمة التي نشأت بين هؤلاء الصعاليك ،وبعض الوحوش التي كانت تعيش في تلك الصحاري، ولعل

من الصور الطريفة التي صورها الشعراء في سياق حياة التشرد ،الصورة المصاحبة التي صورها القتال الكلابي، يقول :

وَلِي صَاحِبٌ فِي الغَارِ هَدَّكَ صَاحِباً هُوَ الجَوْنُ إلاّ أنّهُ لايُعَلِّلُ
إذا مَا التقينا كَانَ جُلَّ حَديثِنَا صِماتٌ وطَرْفٌ كالمعابلِ أطحلُ
تَضَمّنتِ الأَروَى لنا بطِعامنَا كِلانا لَهُ مِنها نَصيبٌ ومَأكلُ
فأغْلِبُهُ فِي صَنْعَة الزّادِ إنني أُميطُ الأذَى عَنْهُ ولا يتأمّلُ
وكانتْ لَـنَا قَلْتٌ بِأَرضٍ مُضِلّةٍ شَريعَتُنَا لأيِّنا جَـاءَ أوّلُ
كِلانا عَدوٌّه لو يَرَى فِي عَدْوِهِ مَحزّاً وَكُلٌّ فِي العَداوَةِ مُجْمِلُ(26)

فالشاعر –وصديقه– يقتسمان الزاد،فيتناوله كل واحد منهما على طريقته الخاصة ،ويردان الماء فيشرب أسبقهما،ويقوم كل منهما بحراسة صاحبه ،وبالرغم من ذلك كله ، كان كل منهما يضمر العداوة للآخر ، وينتهز الفرصة للانقضاض عليه، وإذا علمنا أن الشاعر في النهاية قتل هذا الصاحب ، أدركنا استحالة استمرار مثل تلك العلاقات، وفي صورة أخرى نجد العلاقة حميمة أكثر،فالأحيمر السعدي ،كان صديقا وفيا للذئب ،يمنعه وفاؤه ومروءته من الغدر به ،يقول:

أَرَانِي وَذِئْبُ القَفْرِ إلفَينِ بَعدَمَا بَدأَنا كِلانَا يَشْمَئزّ وَيَذْعَرُ
تَأَلّفَنِي لَمّا دَنَا وَأَلِفْتُـهُ وَأَمْكَنَنِي للرّمي لَوكُنْتُ أغدرُ
وَلَكنّنِي لَمْ يأتمنّي صَاحِـبٌ فَيرتابَ بِي مَا دامَ لا يَتَغَيّرُ(27)

فأبيات الشاعر تشير إلى أن نشوء الصداقة بينهم لم يكن أمراً عشوائياً،بل استغرق ذلك الأيام والليالي،ألف كل واحد منهما الآخر ،فيحاول الأحيمر أن يبرز شمائله في الوفاء والإخلاص،وهي التي وطدت العلاقة بينهما ،

فهذا التوجه للحيوانات بأنْسَنَتِها والحديث معها، يعني أن الشاعر رأى أن يتوجه إلى الأشياء؛ ليسقط عليها انفعاله أو ليترجم من خلالها آماله وعواطفه ومشاعر، وترجمة هذه العواطف كانت أكثر بروزا من خلال الاستخدام المجازي غير المألوف؛لأن هذا الأسلوب قادر على أن يهز الإنسان من أعماقه وأن يبرز الانفعال الثائر في النفس المبدعة، وأن يصل إلى عاطفة القارئ ووجدانه ، وهذا من شأنه أن يسهل عملية التواصل بين الشاعر والقارئ والسامع، وبذلك تكتمل الدائرة الإبداعية من خلال انتقال عدوى الانفعال من الشاعر للقارئ الذي تثور في نفسه تساؤلات كثيرة، وأن قيمة لغة الشعر تظهر من خلال الأسئلة الكثيرة التي تثيرها في نفس القارئ .

وأعطى الصعاليك في العصر الأموي غايتهم وأهدافهم ورعايتهم التامة ،فظلوا يكتمون مشاعرهم ،فيعانون ما يعانون، ويأرقون ويتأملون ،ويملون البعد والاغتراب عن موطن أهلهم وأحبابهم ،ويضجرون من معاشرة الوحوش والغيلان ،فيتفجر ذلك كله آهات حرىّ ،وزفرات مرة، يومضها البرق وتؤججها نسائم الرياح الآتية من جهات الأهل والأحبة.

والارتباط بالوطن "المرابع والديار"ارتباط بالمحبوبة التي تقطن فيه ،أو تقطن في مكان قريب منه ، وحلم العودة إلى لقائها ووصالها ،يبقى حلماً بعيد المنال، لا يلبث صاحبه أن يستيقظ منه ؛ليعود إلى واقعه الأليم الذي يعيشه ، فلا يبقى أمامه إلا أن يعلل النفس بالأماني والآمال ،فغالبا ما كانت المحبوبة مرتبطة بالوطن – المكان – فإذا ما ذكر المكان ذكرت المرأة – ساكنة المكان – ، وهذا ما عبر عنه العرجي في قوله :

تِلْكَ أَوْطَانٌ لِلَيْلَى ولَنَـا ما يَهِيْجُ ذَا الهوَى إلاَّ الوَطَنُ(28)

وقوله :

لَهُ تَعْتَرِي المَرْءَ الغَرِيْبَ صَبَابَةٌ وَشَوْقٌ إِلَى أَوْطَانِهِ حِيْنَ يَبْرُقُ (29)

والربط بين الوطن والمحبوبة كثير في شعر العرجي، فهو حين يذكر الديار يحاول أن يخضعها لرقيق الاحاسيس ورفيق العواطف ، مع وعيه الكامل للحنين إلى الوطن.ولعل نجداً قد حظيت بمكانة روحية عند الشعراء أكثر من غيرها من الأماكن ، فقد تغنى بها الشعراء ، وصار يضرب بها المثل في هذا الموضوع،ومن القول فيها، ما قاله أحد الفاتحين تشوقا إليها :

أَكَرِّرُ طَرْفِي نَحْوَ نَجْدٍ وَإِنَّنِي إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الطَّرْفُ أَنْظُرُ
حَنِيْناً إِلَى أَرْضٍ كَأَنَّ تُرَابَهَا إِذَا مُطِرَتْ عُوْدٌ وَمِسْكٌ وَعَنْبَرُ(30)

يقول جرير :

وَإِنّي لَعفُّ الفَرْق مُشْتَرِكُ الغِنَى سَرِيْعٌ إِذا لَم أَرْضَ دَارِي احْتِمَالِيَا(31)

ويقول :

إِذَا العَرْشُ لاَ تَجْعَل بِبَغْدَادَ مَنِيّتِي وَلَكِنْ بِنَجْدٍ،حَبّذَا بَلَداً نَجْد!(32)

ويقول:

فمَا بَا لَيْتِ لَيْلَتَنَا بِنَجْدٍ وَدَمْعُ العَيْنِ يَنْحَدِرُ انسِكَابَا (33)

وقد ذكرت الأبيات على سبيل الاستشهاد بأن نجداً مثلا للحنين، وقد أورد هذه الأشعار صاحب معجم البلدان، عند حديثه عن منطقة نجد، وهناك أشعار كثيرة قد أغفلتها؛ لأنها تدور في المعنى ذاته، وما ذلك إلا للعلاقة التأثرية المتبادلة بين الإنسان الشاعر والمكان، تجلت وصارت رمزا له.

كان من الطبيعي أن يكثر الشعراء في هذا الموضوع ؛ بسبب ظروف هذا العصر ، حتى إن بعضهم كان يخلق له وطنا ، ثم يحن إليه؛ لأن الحنين فضلا عن كونه عاطفة جياشة ، يُعَدّ انتماء ، لذلك كثر الشعراء الذين حنوا إلى نجد ، وقد تنبه على هذا ياقوت الحموي ، وهذا يعني أنّ نجداً لم تكن سوى رمز للجزيرة العربية ولمراتع الصبا والحنين إلى العودة إليه؛ لأن الملاحظة العامة ، أن العربي لم تكن له حالات رجوع إلى الجزيرة العربية بعد الخروج منها،فقد كان يتقن عملية الاندماج بالآخرين عن طريق الأخوة بالإسلام و الزواج وعدم التعالي على الآخرين ، ومن هنا كان يختلط بدم الناس وفكرهم ، ولذا من الصعب دفعه أو التخلص منه ، فأرى أن الجزيرة العربية كانت ترسل أكثر مما تستقبل، بمعنى أنها كانت عامل طرد وليست عامل جذب .

أدخل على عبد الملك بن مروان عشرة من الخوارج فأمر بضرب رقابهم، وكان يوم غيم ومطر ورعد وبرق،فضربت رقاب تسعة منهم، وقدم العاشر ليضرب عنقه، فبرقت برقة، فأنشأ يقول:

تَأَلّقَ البَرْقُ نَجْدِيّاً فَقُلْتُ لَهُ يَا أَيُّها البَرْقُ إِنّي عَنْكَ مَشْغُولُ
بِذِلّةِ العَقْلِ حَيران بِمُعْتَكِفٍ فِي كَفِّهِ كَحُبابِ المَاءِ مَسْلُولُ

فقال له عبد الملك :ما أحسبك إلا وقد حننت إلى وطنك وأهلك، وقد كنت عاشقاً؟قال :نعم يا أمير المؤمنين،قال:لو سبق شعرك قتل أصحابك لوهبناهم لك،خلوا سبيله،فخلوه(34).

وقد أسقط الشاعر مشاعره على رفيق دربه في حله وترحاله، وهي الراحلة ، إذ نرى التجسيم واضحا في شعر بعضهم ، فهو يناجي هذه الراحلة ويبثها الهموم ويعطيها المواعيد ، وكأن هذه الراحلة تشعر بما يشعر به

صاحبها ، فهي تتمنى العودة كما يتمنى هو ، فغالباما كان يربط الشاعر بين حنينه للبادية وحنين راحلته إليها ، يقول الصمة القشيري :

فَحَنَّتْ حَنِيْنَاً يُطْرِبُ الصَّبَّ ذَا الهَوَى وَقَد نَهَلَتْ مِنْهُ بيَأْسٍ وَعَلَّـــتِ
فَظَلَّتْ تُرَاعِي شِلْوَهَا مُسْتَحِنّـــة إذا سُلِيَتْ رَجَعَ الحَنِيْنُ استَهَلَّـــتِ(35)

ويقول:

وَحَنَّتْ قَلُوصِي بَعْدَ هَدْءٍ صَبَابَـــةً فَيَا رَوْعَةَ مَا رَاعَ قَلْبِي حَنِيْنَهَـــا
حَنَّتْ فِي عِقَالَيْها وَشَبّ لعَيْنِهَـــا سَنَا بَارِقٍ يَسْرِي فَجَنَّ جُنُونَهَـــا
فَقُلتُ لَهَا حِنِّي رُوَيْداً فإنَّنِـــي وَإيَاكِ نُبْدِي عُولَةً سنُبِينُهَـــا(36)

إن مثل هذه الأبيات تفتح النوافذ لترينا ما بداخلها،وتكشف عن ملامح موحية ونماذج من الصراع الإنساني في زمان ومكان محددين، يقول العرجي :

وَتَنُوْفَةٍ أَرْمِي بِنَفْسِي عَرْضَهَا شَوْقَاً إليْكِ بِلاَ هِدَايَةِ هَـــادِي(37)

فالنزوع إلى الأرض – المكان– التي نشأ بها الإنسان في حياته ، هو نزوع روحي ، وهذه علاقة تأثرية بين الإنسان والبيئة " فصلة الإنسان ببيئته وأرضه أكثر ارتباطا وتعقيدا من صلة الحيوان والنبات بالبيئة والأرض ، فابن الصحراء لا يمكن أن يعيش في القطب، وابن القطب لا يعرف أن يعيش في الصحراء " (**38**) ، وهذا ما عبر عنه حنا مينا في قوله " الإنسان تتغير طبيعته عندما تتغير إقامته "(**39**) ، فالإنسان من خلال حركته في المكان ، يقوم برسم جماليات هذا المكان ، والمكان من دون الإنسان ، عبارة عن قطعة من الجماد ، لا حياة ولا روح فيها ، كذلك فإن الإنسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه ، يأخذ من الطبيعة وطقوسها وفصولها ما يساعد مشاعره وعواطفه ومزاجه على رسم المكان (**40**) ، وفي المعنى ذاته يقول الأحوص:

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَهَا أَنَّ ذَا الهَوَى يَزِيْدُ اشْتِيَاقاً أنْ تَحِنُّ الأَبَاعِـــرُ(41)

وكيف نلوم الشعراء على حنينهم وشوقهم للبادية،وخلفاء العصر الأموي يتشوقون للبادية والعيش فيها ، على الرغم من إقامتهم بالقصور وأجوائها ، فتترك أنفسهم هذه القصور وتحن إلى البادية ، قال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه :أي المناديل أشرف؟فقال قائل منهم:مناديل مصر،كأنها غِرْقىء البيْض،وقال آخرون:مناديل اليمن،كأنها نوْر الربيع.فقال عبد الملك:بل مناديل أخي بني سعد،عبدة بن الطبيب التي عناها في قوله:

لَمّا وَرَدْنا رفَعْنا ظِلِ أرْدِيَةٍ وَفَارَ للقومِ باللّحْمِ المَرَاجِيْلُ
وَرْدٌ وأشقرُ لم يُنْهِئْهُ طابخُهُ مَا غَيرّ الغَلْيُ مِنْهُ فَهْوَ مَأكُولُ
ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسوَّمةٍ أَعْرَافُهُنّ لأيدينَا مَنَادِيْلُ(42)

وقيل للوليد بن عبد الملك:مابقي من لذاتك ؟ قال:محادثة الإخوان في الليالي القمر،على الكثبان العفر(43)، ومن شعر الوليد بن يزيد قوله:

وَلَقَدْ قَضَيْتُ ــ وإنْ تَجَلّلَ لِمَّتِي شَيْبٌ ــ عَلَى رَغْمِ العِدَا لَذَاتِي
مِن كَاعِبَاتٍ كَالدُمَى وَمَنَاصِف وَمَرَاكِبَ للصّيد والنّشَوَاتِ
فِي فِتْيَةٍ تأبَى الهَوَانَ وُجُوهُهُم شُمُّ الأنوفِ جَحَاجِحٌ سَادَاتِ
إنْ يَطْلُبوا بتراتهم يُعطوا بِهَا أَو يَطْلُبوا لا يُدْرِكُوا بترَاتِ(44) .

فهذه المواقف قيلت على ألسنة ثلاثة من خلفاء بني أمية ، ،يعيشون في دمشق ،حياة مترفة ،ولكن حلم البادية لا يفارق خيالهم وأساليب حياتهم ،ولعل في شعر الوليد ما يكشف عن تداعيات الحلم البدوي ومكملاته،الصيد في الصحراء،و المرأة و الحرية،حتى الإغارة والسلب.

فالإنسان العربي كان مضطراً إلى " المغادرة " جغرافيا؛ لأن البيئة التي يعيش فيها صعبة ومعادية وغير مستقرة ، ثم إنه سياسيا واجتماعيا كان يحكم عليه أحيانا " بالمغادرة " على نحو ما كانت تفعل القبائل بمن تسميهم " المخلوعين "من الصعاليك ، فالمنفى صار سلاحا في يد بعض الحكام المسلمين ، فعمر حبس ونفى وعزل وضرب، وعزر عددا من الشعراء، منهم الحطيئة ، وأبو محجن الثقفي ،.وفي زمن بني أميةُ نفي الأحوص إلى اليمن ، وأبو قطيفة إلى الشام ،وكذلك العرجي ،وهو القائل :

أضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَىً أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ(45)

ويروى أن ابن الزبير حين سمع أبيات أبي قطيفة التي يقول فيها :

اِقرَ مِنّي السَّلام إنْ جِئْت قَوْمِي وَقَلِيلٌ لَهُم لدىّ السلامُ

أَقْطَعُ الليلَ كُلَّهُ باكتِئَابٍ وَزفيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنَامُ

نَحْوَ قَوْمِي إذ فَرّقتْ بينَنَا الدّا ــرُ وَحَادَتْ عَن قَصْدِهَا الأحْلامُ

قال ابن الزبير : حن والله أبو قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله، من لقيه فليخبره أنه آمن ، فليرجع ، فأخبر بذلك ، فانكفأ إلى المدينة راجعا ، فلم يصل إليها حتى مات (46).

إن المعجم اللغوي لموضوعات هذا اللون من الشعر تكشف عن حرفية واضحة في أسلوب بناء القصيدة متكاملة، وهي تكشف عن مستوى عال من الإثارة والتشويق، وتفعيل الحركة الشعرية إلى أقصى حالاتها فضلا عن ارتباطها بالمكان الذي تتوحد فيه الروح والجسد والجغرافيا على نحو أشكال متداخلة في قوله "أقطع الدهر كله باكتئاب " لتفتح هذه الحالة النفسية الشمولية على حالة أخرى تنحدر منها وتلتصق بها وهي ".... نحو قومي ..." لتشكل مظلة إضاءة صورية ودلالية،تدفعها للاستجابة والرغبة الداخلية،وفي هذا المعنى يقول جميل :

أهَاجَتْكَ المَنَازِلُ والطّلُولُ عفونَ وَخَفَّ مِنْهُنَّ الحُمُولُ

أُسَائِلُ دَارَ بُثْنةَ أينَ حَلتّ ؟ كَأنّ الدّار تُخْبِرُ مَا أقُولُ(47)

ويظهر حلم البادية في أشكال شتى من أقوال الطبقة العليا وأشعارها ،فهذا الحجاج ــ فيما يرويه ابن سلام ــ يقول لجرير والفرزدق:ائتيا في لبس آباكما في الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج والخزّ ،وقعد في قبة، وشاور جرير دهاة بني يربوع، فقالوا :ما لبس آباؤنا إلا الحديد ،فلبس جرير درعا ،وتقلد سيفا،وأخذ رمحا وركب فرسا ،وأقبل في أربعين فارسا من بني يربوع ،وجاء الفرزدق في هيئته، فقال جرير:

لَبِسْتُ سِلاَحِي،والفرزدقُ لعبةٌ عَلَيه وشَاحَاً كُرَّجٍ وَجَلاجِلُهْ

أعِدّوا مَع الخَزّ الملابِ ،فإنّما جَرِيرٌ لَكُم بعلٌ،و أَنتُم حَلائِلُهْ(48)

ويقول أبو قطيفة مفضلاً حياة النخلة الصحراوية وبيئتها على القصور:

القَصْرُ فالنّخلُ فالجَمّاءُ بينَهما أَشْهَى إلى القلبِ مِن أَبْوابِ جَيْرُون(49)

فالمكان لدى لأبي قطيفة وغيره ، يعني أشياء متعددة ، فهو المأوى ومسرح الأحداث ، حتى إن المكان الذي ينتمي إليه الإنسان ، يتخذ بعض الأحيان طابعا مقدسا ؛ لأن العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة متجذرة . والمكان

الحيز لا يمكن أن يعني شيئا كبيرا ، وإنما المكان الذي يعني هو المكان التجربة (50)، حتى الذي لم يقل الشعر، كتب إلى غيره في الموضوع ذاته،فهناك من كتب أبياتًا لأبي الأسود الدؤلي وأرطاة بن سهية لإذاعتها(51).

إن العصر الأموي شهد اتساع الفجوة بين حياة البادية وحياة المدن ،وتأكد الفارق برحيل البدو إلى أمصار جديدة عامرة ،لا تقع فيها المدن على حافة البوادي ،أو قريبا منها ،مثل دمشق والكوفة وخراسان وغيرها ، فقد رحل البدوي إلى بعض هذه المدن ،فوفرت له رغد العيش ،ولكنها في بعدها ،واختلاف أساليب الحياة فيها، وهي أساليب معقدة ومركبة ،جعلت هذا البدوي يشعر بالحنين ،ويناجي مهاده الحقيقي القديم، فيحن إلى أماكن صباه،بنوع من الرفض الداخلي للمكان الجديد .

وما قامت به ميسون بنت بحدل الكلبية أصبح مثلا يستشهد به على تفضيل حياة البادية على حياة القصور، وأبياتها صرخة قوية للمطالبة بالعودة إلى البادية والعيش فيها، وهي زوجة الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وميسون لم تكن شاعرة، وإنما نفثت ما يجول به صدرها ؛ للتعبير عن رفض الحياة وضيقها وعدم تقبل المدينة، والرغبة في حياة البادية وشظفها ، فعلى الرغم من عيشها في القصر ، إلا أن المكان كان حاضرا في الذهن، والنفس تتوق إليه، كلما مر طيف البادية في خيالها، وهي زوجة الخليفة نفسه، وقد تزوجها معاوية على عادة بني أمية في الإكثار من الإصهار، وبخاصة القبائل القوية ،وقد حملها معه إلى دمشق ؛ لتعيش في القصر ،وأصبحت زوجا لأمير المؤمنين، ولكن:هل ارتوت روحها ،وتشكلت طباعها بما يتوافق والحياة الجديدة في المدينة ؟تقول ميسون بنت بحدل:

**لَبيتٌ تَخْفِقُ الأروَاحُ فِيْــهِ		أَحَـــبُّ إليَّ مِن قَصْرٍ مُنيفِ**
**وَكَلب ينبح الطراق عني		أحَـــب إليَّ من قــط أليفِ**
**ولبسُ عَبَاءَةٍ وَ تَقَرّ عَيْني		أَحَـبّ إلىَّ مــن لِبْسِ الشفوفِ**
**وَأكلُ كَسيرةٍ فِي كَسْرِ بيتِي		أَحَـــبّ إليَّ مــن أكْلِ الرغيفِ**
**وأصواتُ الرياحِ بِكلِ فجٍّ		أحَـــبّ إليَّ مــن نَقْرِ الدفوفِ**
**وَخَرْق من عَمي نحيفٍ		أَحَـــبُّ إليَّ مــن عِلْجٍ عليفِ**
**خَشونةٌ عِيشَتِي فِي البدوِ أشْهَى		إلى نَفْسِي مِــن العَيْشِ الطريفِ**
**فَما أبْغِي سِوَى وَطَني بَديلاً		فَحَسْبِي ذاك مِــن وَطَنٍ شَرَيفِ(52)**

وبلغت هذه الأبيات معاوية ، فأرسلها إلى أهلها في البادية ؛ لأنه يعرف مكانة البادية في نفسها، وهي التي أحضرت إلى الخليفة منها. ومهما يكن من أمر، فإن هذه المرأة البدوية لم تغرها المدينة ،ولم تستلبها حياة القصور، وخلقت قصيدة مقارنة في موضوعها ، تصنع المعنى فيها خلال سلسلة من الصور المتقابلة :صورة من البادية ،لها صدر البيت، ووصف الحب ،وصورة من المدينة ومن حياة القصور والترف ،لها عجز البيت، ثم يأتي الختام الحاد في استخدام وصف "الوطن"للبادية ،وهي لا تنفرد بهذا الفهم لمعنى الوطن وحدوده في ذلك العصر ،بل فيما جاء بعده من عصور ،فلم يكن الإطار السياسي للوطن معروفا أو مألوفا في الاستخدام بالمعنى الذي نقصده الآن، إن قصيدة ميسون مؤشر لظاهرة مهمة ،هي الحنين إلى البادية– الوطن – المكان – ،وانعكاس الطابع البدوي في الشعر على أفكار الناس.

وتتجلى في قول جميل حركة الذات الشاعرة في مكان دائري في قوله :

**أَنَا جَمِيْلٌ والحِجَازُ وَطَنِي		فِيْهِ هَوَى نَفْسِي وَفِيْهِ شَجَنِي(53)**

فمن خلال سلسلة الأسماء المتصلة والمتلاحقة تلاحقا سرديا في مضمونها الوجداني والشعري والمكاني " الحجاز وطني – فيه نفسي – وفيه شجني " نلاحظ أنها تتحرك دائريا باتجاه معاينة مكانية، ليفجر فيها حاسية المكان المفتوحة على أبعادها، فيظهر المكان(المسمى الحجاز)،ويقول القطامي :

رِيْحُ الحِجَازِ بِحَقٍّ مَنْ أَنشَاكِ رُدِّي السَّلامَ وَحَيٍّ مَنْ حَيَّاكِ(54)

وقال عمر بن أبي ربيعة:

قَدْ هَاجَ قَلْبَكَ بَعْدَ السَّلْوَةِ الوَطَنُ والشَّوْقُ يُحْدِثُهُ للنَّازِحِ الشَّجَنُ(55)

فتجارب الشعراء كانت مزيجا من الأمل والألم والبعد والفراق وهاجس العودة ، لذلك كانت أفكارهم تجسيدا لهذه التجارب ، فكثير من أشعار الحنين جاءت من خلال قصائد متنوعة الموضوعات، ولم تفرد قصائد كاملة للحديث عن الحنين ، فإذا اشتملت القصيدة على مضامين وموضوعات متعددة، لم تكن تجربة الشاعر كاملة كما يقول شوقي ضيف(56)، ونرى أحيانا ذكر المكان، ويقصد الشاعر من بالمكان من أهل وأحبة ، وهذا كثير في الشعر العربي ، ولا نستغرب أن يكون أراد الاثنين معا، الحنين للمحبوبة أو الأهل وكذلك الحنين إلى مرتع صباه ، يقول جميل :

وَلَمَّا عَلَوْتُ الّلابتَيْنِ تَشَوَّقَت قُلوبٌ إلَى وَادِي القِرَى وُعُيـــونُ(57)

وكان الشاعر أحيانا يشارك مع من يبكي ويشكو عنه ، وقد يكون الذي يشاركه قناعا ، وبصفة عامة كان الأقرب إليه هو الراحلة ، فيشاركها همه كقول الفرزدق :

وَلَيلةٍ بِتْنَا بِدير حَسّان نبَّهَت هُجوداً ، وَعيْسَاً كالخسيّاتِ ضُمرَا
بَكَتْ نَاقَتِي لَيلاً فَهَاجَ بُكاؤُهَا فُؤاداً إلَى أهْلِ الوديعةِ اصورَا
وَحنّتْ حَنيناً مُنْكَراً هَيَّجَتْ بِهِ عَلَى ذِي هَوىً مِنْهُ شَوْقَهُ مَا تَنَكَّرَا
تَرُومُ عَلَى نُعْمانَ فِي الفَجْرِ نَاقَتِي وَإنْ هِيَ حَنّتْ كُنتُ بِالشّوُق أعذَرَا(58)

وكقوله:

تَحِنُّ بِزَوْرَاءَ المَدينةِ نَاقَتِي حَنِيْنَ عَجُولٍ تَبْتَغي البَوَّ رَائِمِ(59)

وكقول جرير:

تَحِنّ قَلوُصِي بَعْدَ هَدْءٍ وَهَاجَهَا وَمِيْضٌ عَلَى ذَاتِ السَّلاسِلِ لاَمِعُ(60)

وقوله:

كَأَنِّي بِالمديبرِ بَيْنَ زَكّا وَبينَ قُرَى أبِي صُغَرى أسيرُ
كَفَى حُزناً فَرّقَهُم وَإنِّي غَرِيْبٌ لاَ أُزارُ وَلا أزُورُ(61)

وكقول ذي الرمة:

تَحِنُّ إلَى الدَّهنَا بِخُفّانّ نَاقَتِي وَأَينَ الهَوَى مِن صَوْتِهِا المُتَرَنِّمِ(62)

فعلاقة الشاعر بالناقة في هذه الحالة جعلته يرىها قريبة من نفسه، فهو يتألم لها ويتعاطف معها " وعندما يكلم الشاعر الحيوان، فليس كلامه خبالا، بل رفعا لما لا يعقل وجعله رموزا لمعنى ذاتي"(63) ، وأنسنة الأشياء تعد ملمحا أكيداً على أن الشعر يمكن أن يسوغ الأشياء التي لا يسوغها الواقع؛ لأن دائرة الشعور والوجدان والعواطف فرضت على الشاعر أن يتوجه إلى الحيوان بهذا الخطاب، بصرف النظر عن أنه يفهم أو لا يفهم(64) .

يقول قيس لبنى:

سَقَى طَلَلَ الدَّارِ التِي أَنْتُمُ بِهَا حَيَاً ثُمَّ وَبْلٌ صَيِّفٌ وَرَبِيْعُ(65)

فظاهرة الحنين إلى المكان في الشعر الأموي جاءت من خلال زوايا متعددة وصور متباعدة ولأسباب شتى ، كان معظمها محكوما بعنصر الابتعاد القسري، كالجهاد أو النفي أو الهروب من المواجهة ، وقد يحن الشخص إلى وطنه الذي يعيش فيه ، إذا لم يندمج فيه ، فيحاول البحث عن الحنين والدفء في مكان آخر، وقد يكون هذا المكان في عالم تصوري أو متخيل .

- **الحنين إلى المرأة .**

كانت الصحراء في طبيعتها الصامتة والمتحركة ، هي الباعث الحقيقي عن نوازع متخيلة في ذاكرة الشاعر الأموي ، وما يعنينا، أن هذا العصر الذي شهد فيه الشاعر حدود دولة الخلافة المترامية ، من أقصى الشرق في خراسان ، إلى أقصى الغرب في الأندلس ،العصر الأموي، ولم تنفذ معاني الدهشة إلى مركز التأثير في شعوره حين رأى أنواع النبات والحيوان والفاكهة ، ورأى جمال النساء ومفاتنهن الذي يخالف النموذج الصحراوي ، مما يدل على عمق الارتباط بالتراث ، ارتباطا يلغي الإحساس بالواقع المتغير ، أو المستجد ، ويدفع به إلى الهامش،حتى تلك الأمنية المشروعة ، ونعني أن يتمنى الشاعر العاشق أن ينفرد بحبيبته بعيدا عن الناس كافة ، وأن ينساها هؤلاء الناس ، لينعما بالوصال دون رقيب ، هذه الأمنية ، قد تحولت – بالحاح الصحراء وقسوة الحياة فيها – إلى صورة منفرة ، يرفضها الذوق ويأباها الطبع ، يقول توبة ابن الحميّر:

وإنّي ليشْفِينِي مِن الشّوق أَنْ أَرَى عَلَى الشّرفِ النّائِي المخوفِ أزورَهَا(66)

وهذا السمهري بن بشر العكلي ،يتذكر محبوبته التي كان له معها صلة ومودة قبل رحيله وهروبه في البلاد الواسعة، فيقول :

وَنُبِّئْتُ لَيلَى بالغَرِيّينْ سَلّمَتْ عليّ وَدُونِي طَخْمَةٌ فرجَامُها

فإنّ التي أهدَتْ عَلَى نأيَ دَارِهَا سَلاماً لمَرْدُودٌ عَليّ سَلامُهَا (67)

فالابتعاد عن المحبوبة أو الاقتراب منها، هو عبارة عن توق روحي متواصل بتواصل سنوات البعد الزماني أو الفراغ الروحي ، فالعلاقة ثنائية تبادلية بين " الأنا" البعيد ، و " نحن" المحبوبة أو الأهل أو الأصدقاء ، وغالبا ما يتذكر الشاعر طيف المحبوبة إذ إن " الحب الكبير جدير بإنسان كبير ، والذي يعطي صاحبه هذا التواصل الروحي على الرغم من الفراق الجسدي ، يتيح له أن يكون سلوة وعزاء وسببا من أسباب الصمود"**(68)** ، وبخاصة إذا كان فاتحا أو مقاتلا أومنفياً ، يقول مزاحم :

عَجَبْتُ لِربّي عَجةً مَا مَلكتُهَـــا وَربّي بِي الشوقُ الحزينُ بَصيـــــــرُ(69)

وليس من الضروري أن يكون الحنين العاطفي بسبب البعد المكاني ، فقد يكون للقريب أيضا ، إذا كان الشاعر عاشقا ، فهو لا يستطيع الابتعاد عن المعشوقة على الرغم من قربه منها ، فهو قريب جسديا لكنه بعيد روحيا ، يقول محمد بن نمير الثقفي :

وكدتُ اشتياقاً نحوَها وصبابَـــةً تَقطَّعُ نَفْسي إثرَهَا حَسَـــــــرَاتِ

وظَلّ صِحَابِي يُظْهرونَ مَلامَتِي عَلَى لوعةِ الأشوَاق والزّفَـــــــرَاتِ(70)

ويقول:

طَربتُ وشافتك المنازلُ مِن جَفَنْ ألا رُبما يعتادكَ الشوقُ بالحَـــــزَنْ(71)

ولأن الألفاظ في مضمونها تحمل صدقا عاطفيا وإحساسا مرهفاً ،و صوراً صادرة من نفوس معذبة تجرعت مرارة البعد والفراق لأسباب شتى ، لذلك جاءت سهلة بسيطة، دون تكلف أو مبالغة؛ لأنهم لم يحفلوا بالتصوير بقدر ما كانوا يحفلون بالتعبير عن الهواجس والأماني، قال قيس بن ذريح:

وددتُ من الشّوق الذي بِي أَنني أعارُ جَناحي طَائِر فأطيـــــــــرُ(72)

وقد تكررت صورة المرأة كثيراً عند هؤلاء الشعراء في حالات البعد المكاني ،والصورة "إذا عاودت الظهور بإلحاح كتقديم وتمثيل على السواء فإنها تغدو رمزاً قد يصبح جزءاً من منظومة رمزية"(**73**).وهذا السمهري بن بشر العكلي يرثي نفسه لصاحبته التي طافت بخيالها عليه، وهو نائم في حبسه ،ورجله مقيدة بقيد أسود ضخم، وخوفه الوحيد، من الموت ؛لأن فيه الفراق الأبدي بينها وبينه:

ألاَ طَرقتْ لَيلى وَسَاقِي رهينةٌ بِأَسمَرَ مشدودٍ عليَّ ثقيلُ

فإن أنجُ مِنها أنجُ مِن ذي عَظيمةٍ وَإن تَكُن الأخرَى فتلكَ سَبيلُ(74)

فأبياته تنطق بصراع حاد،وهو يفارق أهله وأحبته،وفيها من الصدق العاطفي الشيء الكثير،وإذا كانت حال الشاعر السجين تقوم على ذكريات الحب واللحظات السعيدة الماضية و الأمل في المستقبل ، فيجد الأمل في مناجاة محبوبته التي يتصبر بها وبطيفها ، فلا يجد بدا من أن يبعث فيها قدرة على التجديد و الاستمرار بإخراجها من الأحادية إلى الاستثنائية ، بات يناجي الطيف ويجعل الطيف يناجيه "وكان شعرهم حنيناً وأنيناً لبعد الحبيبة التي قامت بينها وبينهم دون اللقاء ،عثرات كثيرة،وقد جاء هذا الشعر وصفاً لحالتهم المتيمة" (**75**) ،يقول عدي بن الرقاع العاملي :

أخطوةُ شَوق فِي الفؤادِ تَغَمرّتْ لِتنكأ قَلباً مُستهاماً مُعَذَّبـــا(76)

ولحظات الوداع والرحيل صعبة ، تعكس أثرا سلبيا على الشاعر المرتحل وعلى محبوبته ؛لأن المرأة موجودة في حياة الرجل، كما هو في حياتها ، يحاول كل منهما التقوّي والتصبر بالآخر ، فقوة أحدهما قوة للآخر ، وهذا ما عبرت عنه نوال السعداوي في قولها " إن هذا الوجود المشترك بين الرجل والمرأة والعلاقة بينهما ، إلى حد القلق، قد يفقد نفسه ويصبح لا شيء ،وكلما كان الإنسان واعيا لوجوده ، زاد قلقه على هذا الوجود وزادت مقاومته للقوى التي تحاول تحطيمه "(**77**) ، فالمرأة في وضعها التاريخي ، لا تعطي جسدها وجهدها وزمنها فقط ، وإنما تبذل أحلامها ، وتوظفها في شخص الرجل ، وتجيِّر كل مشروع تساميها وعلوها على ذاتها(**78**) وهذه هي العلاقة التأثرية والتبادلية للشاعر في غربته،يقول يزيد بن الطثرية .

ألا رُبما أَهدى لِي الشوقُ والجَوى عَلى النأيِ مِنها ذكرة قَلّما تُجْـــــــدِي(79)

ويقول صاحب ليلى :

وإني إذا حَنّت إلى الألفِ إلفُهَا هَفا بِفُؤادِي حَيثُ حَنّت سُحورُهَـــــا(80)

وبخاصة أن الشاعر يمتاز بالإحساس المرهف والقوي مع من حوله، "إنه يقربها من روحه كثيراً وينفخ فيها الحياة"(**81**) ، وهذا المعنى قريب من قول الأحوص :

فأنتَ إلى سَلمى تَحنّ صَبابـــــــةً كَما حَن ألافُ المَطِيّ السَواجـــرُ

ومَا كنتُ أدرِي قَبلَها أنّ ذا الهَوى يَزيدُ اشتياقاً أن تَحِنَّ الأباعِـــــرُ(82)

ومن الملاحظ أن الصورة وأدواتها في أشعار هؤلاء الشعراء تكاد تكون واحدة مكررة ، فالواقع والخيال هما عنصرا الصورة عندهم ، إلا أن الواقع هو المصدر الأساسي في إمداد الشاعر بمضمون الصورة ،" فالصورة حصيلة لرؤى الشاعر وتجاربه ، وهذا لا يعني النسخ الحرفي للواقع أو نسخه نسخا ، فهي لا تنقل ما فيه من الأشياء نقلا آلياً ، بل هي عالم جديد بما تحويه من إعادة بناء الحياة نفسه"(**83**) . وفكر الشاعر وعقله في هذه الحالة يكون كالشبكة القادرة على ضم المتنافرات في بوتقة واحدة في التناسق والتناسب أيضاً،ولا تكون هذه في النص، إلا إذا امتلك الشاعر البصيرة النافذة،وهي التي يطلق عليها الحدس الأصلي"...فالمهم هو درجةالشدة التي بلغها الشاعر في إمساكه بحدسه الأصلي"(**84**) وفي هذا المعنى يقول قيس بن ذريح :

تداعتْ لَه الأحزانُ مِن كلِّ وجهةٍ فَحنّ كَما حنّ الظوّارُ السواجِـــعُ(85)

ويحن الأحوص الى سلع وأهلها، وهو بعمان بعيد عنها، يقول :

أقولُ بعمّان وهل طربي بِهِ إلى أهلِ سَلْعٍ إن تشفت نافعُ
فإن الغريبَ الدارَ مِمّا يشوقه نسيمُ الرياحِ والبروقُ اللوامعُ
وكيفَ اشتياقُ المرءِ يبكِي حبابةً إلى مَن نَأى عن دارِهِ وهوَ طائعُ (86)

ويقول يزيد بن مفرغ :

وإذا المنجون بالليلِ حَنَـــــتْ حَنّ قلبُ المُتيَّم المحــــزونِ(87)

فالتلاعب بالألفاظ وتشخيصها وتجسيمها واضح عند هؤلاء المغتربين عاطفياً، وهذا هو عمل الشاعر،"المصارعة العاتية مع الألفاظ "(**88**).فصفات الحسن في المرأة ظلت بدوية ،وظلت تستمد صورها من مظاهر الصحراء ،حتى عند الشعراء الذين سكنوا المدن، وإذا كان قيس يحن إلى الظباء؛ لأنها تذكره بليلى ،فإنه لم يكن نسيج وحده في هذا ،فالأمر كما يقرره المبرد في عبارة موجزة :"والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والكثيب والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة ، وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء"(89)،وهذا إيجاز مخل للعلاقة بين الطبيعة الصحراوية والمرأة ،فالأمر يحتاج إلى دراسة استقرائية إحصائية ، هي وحدها القادرة على تحديد حجم هذه الظاهرة.يقول ابن مفرغ وهو في سجن سجستان :

دارَ سَلمى بالخبتِ ذِي الإطلالِ كيفَ نَوْمُ الأسيرِ فِي الأغْلالِ
أينَ منّي نَجائبي وَجِيادِي وَغزالِي سَقى الإلهُ غَزالِي(90)

لقد بحث الشاعر الأموي عن الحرية المطلقة ،فلم يجدها إلا للبعير الأجرب والناقة الجرباء ، وقد نفاهما الناس حتى لا يحملا العدوى إلى سائر القطيع ، إن هذا المعنى الموجود في شعر كثير عزة ، قد لامه النقاد عليه، قال كثير:

ألاَ ليتَنا يَا عزّ كُنا لذِي غِنَىً بَعيرينِ نَرعَى فِي الخَلاءِ ونعزُبُ
كِلانا بِهِ عَرٌّ فَمن يَرَنا يَقُلْ عَلَى حُسْنِها جَرباءُ تُعدِي وأجَــربُ (91)

وكرر المعنى نفسه الفرزدق في قوله:

فَيا ليتنَا كُنّا بعيرين لا نَردْ عَلَى مَنْهل إلا نشـــل ونقــذفُ
كِلانا بِهِ عَرّ يَخافُ قَرافه عَلَى الناس مطليّ المساعر أخشفُ
بأرضٍ خلاءٍ وحدَنا ، وثيابُنا من الريطِ والديباج دِرْعٌ وَملحفُ
وَلا زادَ إلا فضلتان : سُلافةٌ وأبيض مِن ماء الغمامةِ قرقفُ(92)

مزج الفرزدق الصورة الحيوانية بالصورة الإنسانية ، إذ تمنى أن يكون وصاحبته بعيرين ، ثم احتاج إلى درع وملحف ، واصطحب الخمر والماء البارد ، والشاعران كلاهما مدينان بهذه الأمنية القاسية وصورتها لشاعر آخر سبقهما بجيلين أو نحوهما وهو عروة بن حزام العذري ، في قوله :

ألا حَبذا مِن حبّ عفراءَ وادياً نعامٌ وبزلٌ حيثُ يلتقيانِ (93)

ظلت الصورة والفكرة عند ابن حزام فسيحة المدى إنسانية في جوهرها ، ولكن الشطر الأخير، قد أوحى بما نجد عند كُثّير والفرزدق ،فالصورة المكررة في معناها تعرض صورا مقنعة، بزوال واحتجاب عن القارئ، ودور القارئ البحث في تجلية هذا القناع وكشفه، من خلال دورات فعالة مشحوذة بالوعي والمعرفة والثقافة والرؤية المنهجية؛ لأن الانفتاح الحر والحيوي الحركي على النص كان بحجم يتناسب وثراء النص وخصبه . ويثيرالبرق اليماني السرور في قلب الطرماح ؛ لأن هذا البرق من جهة أحبابه، الذي هو بعيد عنهم ، فتثور أحزانه، عند ما يتذكر الثريا ، فيقول :

طَربتُ وثاقك اليمانِي بفجّ الريحِ فج القاقزانِ

أضواءُ البرق يلمعُ بينَ وبين الهضبِ بين جبلي أبانِ(94)

إننا لا نهدف إلى تقصي انحراف الفكرة في ذاتها ، وإن كان لهذا الانحراف دلالته ومسوغاته من خلال موقف البيئة والمجتمع من عاطفة الحب ، وما يمارس من ضغوط تؤدي إلى الاحساس بالاستلاب والمطاردة ، وما أردناه هو الكشف عن تغلغل صورة الطبيعة البدوية ، ونظم الحياة البدوية في الذهنية العربية ، كما تتجسد في الشعر الأموي .فقد وصف أكثر من شاعر بأنه كان يتبدى ، ولا ينزل إلى المدن إلا لماما ، وقد فرضت ظواهر البادية نفسها على تصوره للحياة وللمرأة ، فلا تكاد توجد المرأة منفردة في قصيدة من قصائد ذي الرمة مثلاً ، على الرغم من شغفه بها ، إنها مسبوقة أو ملاحقة بالناقة ، أو البقرة الوحشية،وكأن ذا الرمة في تخطيط قصيدته البائية يرسم المشهد ذاته، من أكثر من زاوية،أو أكثر من منظور،وابن قيس الرقيات ، حين مكث بديار عامر ، سطر ذكرياته الجميلة شعرا،يتلهف؛ليسمع خبراً عن أرضه، يقول :

واغْتِرَابِي عَنْ عَامِرِ بنِ لُؤَيٍّ بِبـــــــلادٍ كثيرةِ الأَقْتَالِ

حَولَهُ قومُهُ وَقَومِي بِأَرْضٍ حَرَمٍ دُونَهُم حَنِيْنُ الشَّمَالِ (95)

ويفضل ابن أبي ربيعة وطنه على بقية الأوطان ، فيقول :

لا دارُكُم دَارُنا ياوَهْبُ إذ نَزَحَتْ نَوَاكِ عَنّا، ولا أوطانُكم وَطَنِي

فَلَسْتُ أملكُ إلا أنْ أقولَ إذا ذُكِرْتِ: لا يُبْعِدَنْكِ اللهُ يَاسَكَنِي (96)

إن هذه العاطفة الممزوجة بالغزل أعطت عن البادية انطباعا غير دقيق ،فليست البادية دائما وطن الهوى العفيف ،والخلق السمح،والكرم الفياض ،فقد كانت عكس ذلك في حالات كثيرة ، ففي ديوان محمد بن بشير الخارجي ،وهو بدوي ، وصف بأنه نادر ما كان يزور المدن، وكان له موقف من رجل من الموالي تزوج عربية ، فلم يسكت حتى فرق بينهما ،وأنزلت العقوبة بالمولى ، ونجد في ديوان الراعي النميري قصيدة ، كان باعثها أن هذا الشاعر البدوي المعتز بالصحراء، دأب على أن يصحب امرأة معه في أسفاره ،فهددها أهلها ومنعوها ، وهذا يعني، أن الأحكام الجاهزة – وهي الظاهرة العامة آنذاك– ، غالبا ما تكون غير دقيقة، ونستطيع القول، إن كل شاعر،إنما هو تجربة قائمة بذاتها،قال جميل بثينة:

وذكرتُ عصراً يا بثينةَ شاقَنِي إذ فاتَنِي ، وذكرتُ شرخَ شَبابِي(97)

وقال أيضاً:

ويومَ وردنَا الحجرَ يا بثنَ عادنَي لكِ الشوقُ حتّى باسمكِ كدتُ أفصَحُ(98)

اختار جميل موضوعاًإنسانياً، قديماً حديثاً، فأشركنا في تجربته ،ثم وضع هذا الموضوع في أنساق لغوية خاصة، اختبأت خلفها دقائق الأفكار والمشاعر،مما استدعى إثارة القارىء أو المتلقي،كي يحاول استجلاء الأبعاد المحتملة والممكنة للمعنى ،ولعل التذكر في البيت–الحضور–؛بسبب حالة الغياب التي يعيشها الشاعر،تعني استمالة الشاعر إلى التجديد والتغيير في الواقع النفسي والعاطفي،فاستمرار الحضور يعني الرؤية ،أما الغياب، فهو تحطيم الرؤية وتحريك وازع الحنين ،فالشاعر يعبر في تجربته ،عما في نفسه من صراع داخلي، سواء أكان تعبيرا عن حالات نفسه هو ،أم عن موقف إنساني يمثله(99)

فإذا كان شعر الصعاليك يتصف بشكل عام بالجرأة في القول، والقوة في الإرادة ، وأنهم أناس لهم قلوب تنبض بمشاعر الحب والاحساس بالجمال ، وعواطفهم نحو المرأة جياشة ،فإنهم كانو قريبين من شعراء الغزل العذري ، فحين مضى هؤلاء في طريق الصعلكة، قوبلوا من جهة المرأة بالنفور ، وبجملة من العوائق فرضها المجتمع آنذاك ،فحالت دون إتمام هذه العلاقات الإنسانية ، فحبهم محرم ، يلونه الفراق ، ويزيد الفراق والبعد في لوعة أصحابه، فثمة أخبار تشير إلى حب عفيف ، قام بين القتّال الكلابي وابنة عمه "العالية " ، ولقد حاربه أهلها ، بعد ضغط الظروف الاجتماعية التي تحرم التشهير بالمحبوب ، إذ أقدم أخوها زياد على قتله ، لكن القتّال ينجح في الدفاع عن نفسه وقتله لزياد هذا ،فجعلته هذه الجريمة هاربا مطاردا لا يجرؤ على الاقتراب من مرابعها .

فهذا الحرمان يؤجج عاطفة الحب في نفس شاعرنا ، فتتصاعد زفراته متقدة، تلهب جوانحه ، وتذيب كبده ، فنراه ينتهز فرصة استنجاده بأبناء عشيرته ، ويبثها أشواقاً عذرية واضحة الملامح ، يعبر فيها عن حبه وتعلقه بها ، يقول:

أَعَالِيَ أعلَى اللهُ جَدَّكَ عالياً وَأسقَى برياك العضاةَ البواليَا
أعَالي ما شمسُ النهارِ إذا بدت بأحسنَ مِمّا تَحتَ بُرديكِ عالَيَا
أعَالي لو أنّ النساءَ بِبلدَةٍ وَأنتِ بأخرَى لاتّبعتك ماضيَا
أعَالي لو أشكو الذي قَد أصَابَنِي إلى غُصنٍ رطبٍ لأصبح باليَا
أصَارمَتِي أمُّ العلاء وقد رَمَى بِي الناسُ في أم العلاءِ المراميَا(100)

فإذا كان الرجل يصف حنينه وشوقه إلى المرأة وتلهفه للقائها في هذه الظروف الصعبة ، فأرى أن المرأة تبادله الشعور نفسه ، وليس كما وصفها العقاد بقوله " وأن ما نلاحظه من حنين المرأة على المرضى والضعفاء وعدم قدرة الرجل على ذلك، إنما مرده إلى أن المرأة ضعيفة الخيال ، ولذا لا تحس بعذاب من هو بين يديها وتقف على المريض والضعيف موقفا_ نظنه حنوا وتضحية ولكنه في الحقيقة بلادة وعدم إحساس "(101) وأرى أن هذا الكلام غير دقيق،فالمرأة تحس وتشعر وتحن وتشارك في العاطفة .

الاستنتاجات والتوصيات:

يرتبط الإنسان ببيئته ووطنه ارتباطا قويا ووثيقا ؛ لأنه لا يستطيع الخلاص منها ، فهو مكمل لها ، وهي كذلك ، ومن هنا كان للمكان أثر في تكوين الشخص نفسيا وسلوكيا وعاطفيا ، فالارتباط في البيئة هو غريزة فطرية ، نجدها حتى عند الحيوان ، وهذه الغريزة ، تثيرها الرياح القادمة من جهة الأهل أو المحبوبة أو الوطن ،

وكذلك البرق الذي يلمع في السماء من جهة الأهل والأوطان ، وكل ما يذكّر الشاعر بما له علاقة بمكانه الروحي أو العاطفي .

وقد شهد العصر الأموي بزوغ حياة حضرية لم يعهدها من قبل ؛ نتيجة للفتح الإسلامي ، وامتزاج الناس بالأمم الأخرى بسرعة ؛ بسبب التزاوج والتآخي وغيرهما ، ولكن هذا التزاوج لم يبعد هؤلاء عن مكانهم الأول ، وظلوا يشعرون بالغربة في هذه البلاد التي فتحوها وأقاموا فيها ، فاقترن إحساسهم باليأس والغربة والحنين والشوق واللهفة ، والتطلع – دائما – إلى مكان حبهم ومراتع صباهم ، مع أمنياتهم الدائمة للرجوع إلى الوطن والمكان الأم.

والحنين إلى الماضي بكل ما فيه ، يمكن أن يتجاوز في الشعر حدود تجربة الشاعر الذاتية ، إلى الشعور الحضاري لكل شخص يتذبذب بين ماضيه وحاضره ، ولكن على الرغم من نأي الشعراء العرب عن جزيرتهم ، منبت شعرهم وموئل وحيهم ، فقد ظل هذا الرافد التراثي العريق في حياتهم ، يستمدون منه مادتهم الشعرية وصورهم البيانية .

كان هذا الشعر ناطقا باسم جماعة من الناس ، سواء أكانوا في الجزيرة العربية ، لم يغادروها ، مثل بعض الشعراء العذريين ، أو غيرهم من الفاتحين أو الصعاليك . وقد اتسعت الفجوة بين حياة البادية وحياة المدن ، وازدادت اتساعا برحيل البدو إلى أمصار جديدة ، مثل دمشق والكوفة وخراسان وغيرها ، فقد رحل البدوي إلى بعض هذه المدن ،فوفرت له رغد العيش ،ولكنها في بعدها ،واختلاف أساليب الحياة فيها، جعلته يشعر بالحنين، ويناجي مهاده الحقيقي ، فيحن إلى أماكن صباه،بنوع من الرفض الداخلي للمكان الجديد . فتجارب الشعراء كانت مزيجا من الأمل والألم والبعد والفراق وهاجس العودة .

جاءت أشعار الحنين من خلال قصائد متنوعة الموضوعات، ولم تفرد قصائد كاملة للحديث عنه .وعندما يذكر الشاعر المكان، يقصد مَن بالمكان ، وربما أراد الاثنين معا . جاءت الصورة العامة لهذا النوع من الشعر صورا رمزية إيحائية ،تبدو في ظاهرها صورة وصفية وتشكل كل منها لوحة فنية تتنوع ألوانها ، وتتعدد خطوطها، وتتداخل عناصرها الفنية ، فيتآزر الجميع في خدمة إبراز الصورة الكلية التي تجسم موقفا أو فكرة أو معنى، وصورة وصفية تقريرية، تعتمد السرد المباشر الذي يصرح فيه الشاعر بالمعنى أو الفكرة ، ويفصح عن بعض مشاعره ، وهذا ما تمثله الموضوعات التي تعبر عن ذات الشخص، وتصور شطرا من نضاله وكفاحه في سبيل تحقيق أهدافه ، والصفة الغالبة على هذا اللون من الشعر، لم تكن التجويد والإحكام؛ بسبب الانفعال الزائد،والميل إلى "التنفيس" السريع ، عما يجول في خاطر الشاعر،وليس التجويد في الشعر .

الهوامش:

(1) ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل ، ط دار المعارف ، مصر : ص 68

(2) الوجودية ، جون ماكوري . ترجمة إمام عبد الفتاح إمام . العدد58 ، عالم المعرفة . 1982 ص295،294

(3) ينظر في مفهوم الوطن ، محمد حور : ص 1–23 .

(4) سورة النساء : آية 66.

(5) لسان العرب: مادة (حَنَنَ) .

(6) سورة مريم: آية 12–13

(7) لسان العرب:مادة (حَنَنَ) .

(8) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ط بيروت . د. ت : 183/5 .

(9) معجم البلدان ، فضل مكة.

(10) أخبار مكة ، الأزرقي ، تحقيق رشدي ملحس ، ط 2 ، ط دار اثقافة ، مكة ، 1965: 155/2 (الثمام : اسم نبات ، أسل : نما ، أمشَّ: مسح)

(11) ديوان المعاني 187/2

(12) دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف ، ط دار المعارف ، مصر ، ط3،ص:263

(13)- الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري القيسي، بيروت، ط1، 1970: ص254

(14)مظاهر الغربة النفسية في العصرين الإسلامي والأموي،أحمد دوليبي.رسالة دكتوراه-مخطوطة،جامعة حلب، سوريا،2000م: ص159.

(15) الأغاني :370/22-371

(16) ديوان القطامي:ص 206

(17) ينظر ،في الشعر الإسلامي والأموي ،عبد القادر القط ،ط النهضة،بيروت،ط1979:ص71.

(18) ديوانه: ص27

(19)ديوانه:ص32-33

(20) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي ، ط داتر الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت : (كرمان)

(21)ديونه:ص213-214

(22) ينظر الحنين إلى الوطن في الأدب العربي، محمد حور ،ط دبي، ط2، 1989: ص138.

(23) ديوانه:ص 35- 37

(24) ديوانه: ص36

(25) ديوانه :ص 222- 223

(26) ديوانه ،ص:77-78

(27) الشعر والشعراء : 672/2

(28) ديوان العرجي : ص38

(29) ديوانه :ص 31

(30) معجم البلدان :262/5- 263

(31) ديوانه: 605/1

(32) ديوانه ، شرح يوسف ، عيد ، ط دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ، 1992 .

(33)أدباء السجون: ص43

(34) معجم البلدان 264/5، والأبيات موجودة في ديوان الخوارج

(35) ديوانه :ص 37

(36) ديوانه :ص136

(37) ديوان العرجي : ص 96

(38) الحنين إلى الوطن في الأدب العربي ، محمد إبراهيم حور ، ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1973 : ص13

(39) حنا مينا ، فاطمة حكمت ، المرأة ، الجنس ، الحياة ، ط دار الآداب ، بيروت ، ط3 ، 1983:ص45

(40) ينظر ،شاكر النابلسي ، جماليات المكان في الرواية العربية ، ط بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1994 : ص 96

(41) شعر الأحوص الأنصاري :ص 177

(42) المفضليات:ص 139

(43) مروج الذهب:214/3

(44) شعر الوليد بن يزيد:ص31

(45) ديوانه :ص 136

(46) الأغاني: 56/1

(47) ديوانه:ص 16

(48) طبقات فحول الشعراء :ج1 ص406

(49) الأغاني : أخبار أبي قطيفة

(50)جماليات الأسلوب والتلقي،موسى ربابعة،ط مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية،عمان ، ط 1 ، 2000: ص 64.

(51) أدب الغرباء،أبو الفرج الأصفهاني،تحقيق صلاح الدين المنجد،ط بيروت ،د.ت:ص42وينظر ص94

(52) شاعرات العرب : ص 307

(53) ديوانه :ص 206

(54) ديوانه : ص169، وينظر216

(55) ديوانه:ص435

(56) في النقد الأدبي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، 1966، ط 2 ، ص138

(57) ديوانه :ص 199

(58) ديوانه : 299/1

(59) ديوانه : 307/2

(60) ديوانه :ص 368

(61) ديوانه:ص 233 –234

(62) ديوانه : 1179/2

(63) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، نصرت عبد الرحمن، عمان، 1976: ص169.

(64) تشكيل الخطاب الشعري، موسى ربايعة، عمان، ط2، 2006، ص 64 .

(65) قيس ولبنى شعر ودراسة :ص113

(66) ديوانه : ص 27.

(67) ديوانه :ص147

(68) حنا مينا ، فاطمة حكمت ، الجنس ، المرأة ، الحياة : ص142

(69) شعر مزاحم العقيلي : ص101

(70) ديوانه:ص126

(71) ديوانه: ص133

(72) ديوان قيس بن ذريح: ص 90

(73)نظرية الأدب رينيه وأوستن،ترجمة محيي الدين صبحي،ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط 3.د. ت.ص 197 .

(74) ديوانه: ص145

(75)القيم الروحية في الشعر العربي،ثريا عبد الفتاح ملحس ،ط1 دار الكتاب اللبناني، بيروت،د.ط.د.ت:ص92.

(76) ديوانه : 229

(77) الأنثى هي الاصل ، نوال السعداوي ، ط بيروت ، 1974 ، ص 201

(78) المرأة – التحرر – الابداع ، خالدة سعيد ، الدرا البيضاء ، 1991:ص51

(79) شعر يزيد بن الطثرية : ص 68

(80) ديوان مجنون ليلى : ص 146

(81) جنائن ،سكين،تشارلز ديروتي،ترجمة جبرا ابراهيم جبرا،ط بيروت،1980:ص 124

(82) شعر الأحوص الأنصاري: ص 117.

(83) الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي ، علي إبراهيم أبو زيد ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1981 :ص 244

(84) النظرية الشعرية عند ت.هيوم،آلن آل جونز،ترجمة جبرا إبراهيم جبرا،ط بيروت،1979:ص53

(85) ديوان قيس بن ذريح : ص102

(86) شعر الأحوص الأنصاري :ص 145 – 146 ،وينظر 146

(87) شعر يزيد بن مفرغ : ص 158

(88)آلن آل جونز:مرجع سابق ص57

(89) الكامل:ج3 ص54

(90) شعر ابن مفرغ الحميري :ص124

(91) ديوانه :ص 47

(92) ديوانه:ص 385

(93) الأغاني:24 /293

(94) ديوانه :ص 107

(95) ديوانه : ص113

(96) ديوانه :ص 284 وينظر في المعنى ذاته ديوانه : ص 281،280،279،272،306.

(97) ديوانه : ص 35

(98) ديوان جميل بثينة : ص44

(99) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، القاهرة ، 1964 : ص384.

(100) القتال الكلابي ، ديوانه : ص94

(101) مطالعات في الكتب والحياة ، عباس العقاد ، دار الكتاب العربي ، ط1 ، 1996 :ص 165 .

المراجع:

أ- الدواوين والمجموعات الشعرية :

1- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف، د.ت .

2- ديوان توبة بن الحمير، تحقيق خليل إبراهيم العطية، بغداد، 1986 .

3- ديوان جرير،ط الصاوي ،بيروت ،د.ت.

4- ديوان جميل، شاعر الحب العذري، تحقيق حسين نصار ، مصر،ط2، 1967

5- ديوان جميل بثينة ، جمع وتحقيق أميل يعقوب ، ط لبنان ،2004 .

6- ديوان الخوارج ، تحقيق نايف معروف ، ط دار الميسرة ، بيروت ط1، 1983

7- ديوان ذي الرمة،تحقيق عبد القدوس أبو صالح، طبعة مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط3 ، 1993 .

8- ديوان السمهري بن بشر العكلي ، ضمن كتاب شعراء أمويون ، بغداد .1976

9- ديوان الصمة القشري ، تحقيق عبد العزيز الفيصل، ط الرياض ، .1981

10- ديوان الطرماح، تحقيق ، عزت حسن ، دمشق ،1968 .

11- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق محمد نجم، بيروت ، 1958 .

12- ديوان عبيد بن أيوب العنبري ، ضمن كتاب شعراء أمويون ، تحقيق ، نوري حمودي القيسي ، بغداد ، 1976

13- ديوان عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن، ط المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987 .

14- ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي، ط بغداد ، 1956 .

15- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،ط2، ط دار الأندلس ، 1960 .

16- ديوان الفرزدق ، شرح علي فاعور ، دار الكتب العلمية،بيروت، 1987 .

17- ديوان القطامي ، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، ط1 ، بيروت ، 1961 .

18- ديوان قيس بن ذريح، شعر ودراسة ، تحقيق حسين نصار ، مصر، 1977.

19- ديوان القتال الكلابي ، تحقيق إحسان عباس، بيروت ، 1961 .

20- ديوان كثير عزة، شرح عدنان درويش ،ط بيروت، ط1 ، 1994 .

21- ديوان كثير عزة، جمع إحسان عباس، بيروت،1971

22- ديوان مالك بن الريب ، ضمن كتاب شعراء أمويون ، تحقيق نوري حمودي القيسي ، بغداد ، .1976

23- ديوان محمد بن نمير الثقفي، ضمن كتاب شعراء أمويون ، بغداد،1976.

24- ديوان مجنون ليلى، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، د.ط ، 1965.

25- شعر الأحوص الأنصاري ، تحقيق عادل سليمان، ط القاهرة ، 1970 .

26- شعر صاحب الفيل ، حياته وما تبقى من شعره، جمع نوري القيسي، مجلة المورد، م 15 ، 1986

27- شعر مزاحم العقلي، تحقيق نوري القيسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، م22 ، ج1، 1976 .

28- شعر الوليد بن يزيد، جمع وتحقيق حسين عطوان، عمان ، 1979 .
29- شعر يزيد بن مفرغ الحميري، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، طبعة الرسالة، بيروت ،1976 .
30- شعر يز يد بن الطثرية ، تحقيق حاتم الضامن، ط بغداد ، 1973 .
31- المفضليات،المفضل الضبي،تحقيق وشرح ،أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط مصر، 1361 هـ .

ب- المصادر والمراجع :

1- الأصفهاني، أبو الفرج، 1977،الأغاني ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، و ط دار إحياء التراث العربي،ط 2 ، بيروت .
2- الأصفهاني ، أبو الفرج ، د.ت .أدب الغرباء تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت.
3- جونز ، آلن ، 1979 ، النظرية الشعرية عند ت هيوم ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، ط بيروت .
4- حكمت ، فاطمة ، 1983 ، المرأة، الجنس، ط 3 ، بيروت .
5- الحموي ، ياقوت ، 1955 ، معجم البلدان ، ط دار الكتاب العربي .
6- حور ، محمد ، 1989 ، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي، ط 2 ، دبي.
7- ربايعة ، موسى ، 2006 ، تشكيل الخطاب الشعري، ط 2 ، عمان .
8- أبو زيد ، علي ، 1981، الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي، ط دار المعارف، ط 1 ،ط القاهرة.
9- السعداوي ، نوال ، 1974 ، الأنثى هي الأصل، ط بيروت .
10- سعيد ، خالدة ، 1991 ، المرأة التحرر الإبداع ، ط الدار البيضاء .
11- سكين ، تشالز ، 1980 ، جنائن ،ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ط بيروت .
12- ضيف ، شوقي ، 1966 ، في النقد الأدبي ، ط 2 ، دار المعارف ،ط مصر .
13- العسقلاني ،ابن حجر،د.ت ، الإصابة في تمييز الصحابة ، ، تحقيق علي محمد البجاوي،ط مصر.
14- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد، العقد الفريد، 1970 ، تحقيق أحمد عادل سليمان،ط القاهرة .
15- ابن قتيبة ، محمد، 1977 ، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط 3 ، دار التراث العربي.
16- القاضي ، النعمان ، 1965 ، شعر الفتوح الإسلامية ، ط القاهرة .
17- نصار ، حسين ، 1960 ، قيس ولبنى، شعر ودراسة د.م .
18- هلال ، محمد غنيمي ، 1964 ، النقد الأدبي الحديث، ط القاهرة .
19- يموت ، بشير ، 1967 ، شاعرات العرب ، تحقيق عبد البديع صقر ،ط دمشق .

الرسائل العلمية :

- أحمد دواليبي، 2000 ، مظاهر الغربة النفسية في العصرين الإسلامي والأموي ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة،جامعة حلب، سوريا.